أيـأذن أمير المؤمنين

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ﷺ)
ثانى الخلفاء

لست أكتب تاريخًا لعمر بن الخطاب، ولا أزيد الناس معرفة بعظمته ولا أُزكى على الله نفسى بالكتابة عن رجل أحبه الله واصطفاه؛ إن المحاولة التى أنا بصددها أكثر تواضعًا من هذا كله إنى أُصغى إلى أمير المؤمنين، لا أكثر .. وأتطلع إليه، لا أقل: سنحاول أن نلتقى بالرجل الذى لم تُسعدنا المقادير باللقاء معه فى دروب المدينة، حيث كانت سجاياه وعظمته تملأ الزمان والمكان، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، من عدالة الحاكمين وزهد القادرين، وإخبات الناسكين، وقوة الوُدعاء الراحمين، ووداعة الأقوياء المتقين...!!

أجل.. هذا ما نحاول: أن نعيش لحظات فى رحاب عمر، ونأخذ من المشهد المكتوب عِوض ما فاتنا من المشهد الحى، ونلقى السمع والبصر والفؤاد على هذا القوى الأمين، والمعلم الذى ليس له بين المعلمين نظير ونقضى فى معيته لحظات ترفع من قدر حياتنا.

ومعية أمير المؤمنين، ليست مثل معيات غيره من الأمراء والحاكمين... إنها شيء مختلف جدًا. فلا مكان فيها لأطايب الطعام، ومناعم الشراب، ومباهج الحياة .. لا مكان للفُرش المرفوعة، ولا للأكواب الموضوعة، ولا للنمارق المصفوفة، ولا للزرابى المبثوثة...

لا مكان للراحة.... لا مكان للزهو... لا مكان للزُلفى....

من أجل هذا، كان الاقتراب من هذه المعية رهيبًا، بقدر ما هو حبيب إلى النفس.

والمشهد المسطور من تاريخه لا يكاد يختلف عن المشهد الحى إلا فى غياب البطل عن حاسة البصر وحدها.. أما الأفئدة .. وأما البصيرة، فتُحس وهى تُطالع سيرته أنها تُعايشه وتجالسه وترى رأى العين جلال الأعمال ومناسك البطولات التى يتناولها بيد أستاذ عظيم ..... جدّ عظيم.

فالرجل الكبير فى بساطة، البسيط فى قوة، القوى فى عدل ورحمة، لا يستريح ولا يترك الذين معه يستريحون، ولكنه يمنحهم بدلاً من الراحة أعظم ما فى الحياة من سؤدد وغبطة وتفوق، هذا هو أمير المؤمنين، الرجل الذى أنجبته البشرية ورباه الإسلام هذا هو الناسك

الذى تفجّر نُسكه حركة، وذكاء ... وعملاً .. وبناء... هذا هو المعلم الذى صحح مفاهيم الحياة، وأفرغ عليها نورًا من روحه وكساها عظمة من سلوكه، وكان للمتقين إمامًا ..!!

تُرى ماذا يذكر التاريخ من نَسَبِه العظيم، وسيرته الفاضلة؟؟

هل يذكرون فتوحاته على كثرتها..؟؟ هل يذكرون انتصاراته على روعتها؟

هل يذكرون ذلك الإنسان الإلهى الذى يجرى فى وقت الحر القاتل وراء بعير من أموال الأمة مخافة أن يضيع، فيحاسبه الله حسابًا عسيرًا؟!!

أو الذى يصطحب زوجته فى الوقت الأخير من الليل حاملاً على كتفيه وفى يديه جراب دقيق وقربة ماء، ووعاء سمن، حيث تتولى زوجته أمر سيدة غريبة أدركها المخاض وحيث يجلس هو خارج الكوخ يُنضج لها طعام الوالدات...!

أو الذى يتأخر عن خطبة الجمعة، ثم يجيء مهرولاً فى بُردة بها إحدى وعشرون رقعة، تحتها قميص لم يجف بعد من البلل ثم لا يكاد يصعد المنبر حتى يعتذر للناس عن تأخره فيقول: «حبسنى عنكم قميصى هذا .. كنت أنتظره حتى يجف، إنه ليس لى قميص غيره...!!».

أو الذى يستقبل هدية من الحلوى أرسلها إليه عامله على أذربيجان فيسأل الرسول الذى جاء بها: أوكل الناس هناك يأكلون هذا ؟.. فيجيبه الرجل قائلاً: كلا يا أمير المؤمنين، إنها طعام الصفوة..!! فيقول عمر للرجل: «أين بعيرك ... احمل هديتك وارجع بها إلى صاحبها وقل له: عمر يأمرك ألا تشبع من طعام حتى يشبع منه قبلك جميع المسلمين..!!».

هذا هو عمر فى ذاكرة التاريخ.

هذا هو منارة الله فى الدنيا، وهديته إلى الحياة.

وعلى مائدته الخالية من أطايب الطعام، الحافلة بأطايب العظمة سنقضى أسعد لحظات حياتنا...!!!

* * *

ليوسعنَّهم خيرًا

كانت مكة تودع ضيوفها الذين وفدوا عليها من شتى بقاع الجزيرة ليشهدوا مهرجان «عكاظ» حيث تزهو القبائل بشعرائها المتفوقين وحيث تزداد حلبة المصارعة بفتيان قريش الأشداء يعرضون ألعابهم.

كانت مكة تودع أولئك الأضياف وهم راجعون إلى بلادهم – عدا نفر قليل منهم استهوتهم البلد الحرام فآثروا المكث من هؤلاء النفر، ذلك الشيخ الذى ذهب إلى دار الندوة ليقضى بها ساعة الأصيل مع رفاقه فى الشيخوخة.

وفى الطريق لقيه أعرابى قريب العهد بمكة قال له:

- هل علمت النبأ العظيم يا أخا العرب.

- أى نبأ يا بنى ...؟

- ذلك الرجل الأعسر اليَسَر.....

ويتساءل الشيخ قائلًا:

- الذى كان يصارع فى سوق عكاظ...؟

- أجل ... هو..

- ما باله يا فتى..؟

- لقد أسلم، واتبع محمدًا ...

ويفيق الشيخ من الدهشة، ويقول وقد كست وجهه حكمة السنين:

«أما والحق، ليُوسعنّهم خيرًا ... أو ليوسعنّهم شرًّا».

* * *

أما الأعسر الذى كان يصارع فى سوق عكاظ، فهو عمر... وأما نبوءة العربى، فقد جاءت كفلق الصبح وضوء النهار من ذلك اليوم، لم يعد الأعسر اليسر .. عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العزى من بنى عدى ... لم يعد ذلك الذى يصارع الأشداء فى سوق عكاظ، بل صار «الفاروق عمر» الذى سيصارع الباطل فى جزيرة العرب.

سيكون الرجل الذى يملأ أرض الناس عدلاً، وأمنًا، ورحمة، وهدى «فعمر» ذلك الرجل القوى، المجدول اللحم، المشرب بالحمرة الغليظ القدمين والكفين، العريض المنكبين، الفاره الشامخ العملاق، الذى لم يسر قط مع قوم إلا كان أعلاهم رأسًا من فرط طوله.

الرجل الذى كان كما نعتوه: «إذا تكلم أسمع. وإذا مشَى أسرع. وإذا ضرب أوجع».

لقد كان رسول الله ﷺ، يدرك عظمة الطبيعة البشرية التى رُزقها «عمر» وكذلك عمرو بن هشام.

من أجل هذا دعا ربه الكبير أن ينصر الإسلام بأحب الرجلين إليه «عمر بن الخطاب، أو عمرو بن هشام».

ولقد ربح الإسلام أحب الرجلين إلى الله، وكان عمر بن الخطاب صاحب الفطرة السوية الجياشة.. ألقى ثقله كله فى كفة التوحيد.

يقول عبد الله بن مسعود: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر، كان إسلامه فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمارته رحمة، ولقد رأيتُنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر..!! »

* * *

- إسلامه :

ذات يوم خرج من داره حاملاً سيفه الجسور، موليًا وجهه شطر «دار الأرقم» حيث كان الرسول ﷺ، ونفر من أصحابه المؤمنين يذكرون الله هناك، ويعبدونه.

وفى الطريق يلقاه «نُعيم بن عبد الله» فيرى ملامحه تتفجر بأسًا ونقمة فيقترب منه فى وجل ويسأله.

إلى أين يا عمر..؟

فيجيبه: «إلى هذا الصابئ الذى فرّق أمر قريش، وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله»..

فيقول نُعيم وقد أحس بالموقف وبالخطر: «لبئس السعى سعيك، وبئس الممشى ممشاك!»

ويخشى «عمر» أن يكون «نُعيم» قد أسلم، فيقول له: «لعلك صبأت.. إن لم تكن فعلت فواللات والعُزى لأبدأن بك».

فيقول نُعيم: «ألا فاعلم يا عمر أن أختك وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما، وتركا دينك الذى أنت عليه».

سمع ذلك «عمر» فذهب إلى دار أخته مسرعًا والشر فى عينيه، وفى جوف الدار كان «سعيد بن زيد» وزوجته «فاطمة بنت الخطاب» و«خباب بن الأرت» وملء أيديهم صحيفة فيها من وحى الله آيات يتلونها ويتدارسونها.

قرع الباب قرعًا رهيبًا..

قيل: من؟ قال: عمر..

أما خباب، فسارع إلى مخبإ قصى فى الدار، سائلًا الله حفظه وغوثه..!!

وأما أخت «عمر» وزوجها، فقد استقبلاه لدى الباب يغشاهما ذهول المفاجأة، ولم تنس بنت الخطاب فى هذه الغمرة الداهمة، الصحيفة الكريمة التى بها آى الله فخبأتها تحت ثيابها.

قال عمر: ما هذه الهينمة التى سمعت عندكم؟..

أجابا: لا شيء إنها نجوى وأحاديث..

قال لهما: سمعت أنكما صبأتما..

قال سعيد: «أرأيت يا عمر إن كان الحق فى غير دينك؟؟»

ولم يمهله «عمر» حتى يتم حديثه، فوثب عليه فى عنفوان وأخذ برأسه يجره ويلويه، ثم ألقاه أرضًا، وجلس فوق صدره وحين تقدمت أخته لتدافع عن زوجها أصابتها منه لطمة أدمت وجهها فصاحت به وكأنها بُوق سماوى يُدوّي: «يا عدو الله، أتضربنى على إيمانى بالله الأحد؟ ألا ما كنت فاعلاً فافعل، فإنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله».

والآن.. انتبهوا جيدًا، فإن اللحظة الحاسمة تدق مؤذنة بالتحول، وكاشفة عن الجوهر النقى القوى الذى صُنعت منه فطرة هذا الرجل.

فجأة ينهض من فوق صدر «سعيد» ويبسط يده الضارعة إلى أخته، سائلاً إياها أن تعطيه الصحيفة التى رآها تبرز من تحت ثيابها.

هات هذه الصحيفة لأنظر ما فيها.

وتجيبه أخته: «كلا .. إنه لا يمسه إلا المطهرون، اذهب فاغتسل وتطهر».

ويمضى «عمر» كالأنفاس الوديعة الهادئة، هذا الذى كان منذ لحظات إعصارًا يدمدم .. ويعود ولحيته تقطر ماء، وتعطيه أخته الصحيفة، ويقرأ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ثم يتابع التلاوة فى خشوع وتبتل: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾.

ويعانق عمر الصحيفة ثم يقبلها وينهض واقفًا ويقول: «لا ينبغى لمن هذه آياته أن يكون له شريك يُعبد معه، دلونى على محمد»!

وهنا يخرج «خباب بن الأرت» من مخبئه، ويهرول إلى عمر صائحًا أبشر يا عمر، فوالله لقد استجيب دعاء الرسول لك».

ويتخذ عمر سبيله إلى الصفا حيث دار الأرقم، وهناك بين يدى رسول الله عليه الصلاة والسلام، يدخل فى الدين الحق، ويكبر المسلمون تكبيرة تهتز لها مكة جميعًا..!

فى لمح البصر، تم هذا التحول الهائل العظيم، وانتقل إلى أقصى رحاب الهدى، رجل كان يقف فى أقصى مجاهل الوثنية.

وفى أول لحظات إسلامه قال: يا رسول الله ألسنا على الحق فى مماتنا ومحيانا..؟؟

ويجيبه الرسول: «**بلى يا عمر، والذى نفسى بيده إنكم لعلى الحق إن متم وإن حييتم**».

يقول عمر: ففيم الاختفاء إذن..؟ والذى بعثك بالحق لتخرجنّ ولنخرجن معك».

ويخرج الرسول ﷺ، والمسلمون معه فى صفين؛ «عمر» فى صف، و«حمزة» فى الصف الآخر، والرسول ﷺ أمامهم يكبروا إلى أن دخلوا الكعبة..

ويقول عمر: «والله، لن أترك مكانًا جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان..!»

أجل .. سيعقب «عمر» كل حركاته، وكل كلماته، وكل خلجاته التى ظلت تحمل سخريته بدين الله مدى ستة أعوام، سيعقبها فى كل مظانها ومواطنها، وسيضع مكان كل سيئة حسنة.

واليوم، لا بد أن يكون إسلامه عاملاً حاسمًا فى الجهر بالدعوة ونبذ التخفى والمداراة.

وإنه ليذهب إلى رسول الله ﷺ فيقول: «بأبى أنت وأمى يا رسول الله، ما يحبسك، فوالله ما تركت مجلسًا كنت أجلس فيه بالكفر، إلا أظهرت فيه الإيمان غير هائب ولا خائف – ألا إننا لن نعبد الله سرًّا بعد اليوم..».

ويستجيب الرسول ﷺ لرأيه، وتخرج الدعوة من مكمنها إلى أرض الله الواسعة.

ولن يكتفى بهذا، بل قرر أن يرفع من قيمة العذاب الذى يلقاه إخوانه، بأن يتعرض له، ويأخذ نصيبًا منه .. نعم لن يظل اضطهاد قريش وقفًا على «بلال»، أو «خباب» أو «عمار» أو «صُهيب» وإخوانهم من الفقراء والمستضعفين، بل لا بد أن يُضرب «عمر» كما يضربون، وبهذا لا يكون ضربهم وعذابهم ذلّة تكسر نفوسهم..

ويرسم خطته، ويبدأ جولته بأبى جهل، فيذهب إليه فى داره، ويقرع الباب، ويخرج أبو جهل ليجد أمامه «عمر» فيغلق الباب دونه، ويمر بأشراف قريش فى دورهم متحديًا، رجاء أن يخوض أحدهم معه معركة يخرج منها بلطمة فى صدره أو جرح فى وجهه ولكنهم جميعًا كانوا يتحاشونه.

وعندما أراد الهجرة، اختار أن يهاجر فى العلن، يقول على بن أبى طالب ﷺ: «كل مهاجر مستخف إلا عمر بن الخطاب، مسك سيفه وعصاه، وحضر إلى الكعبة فى أكثر وقت كانت قريش فيه مجتمعة وبدأ يطوف سبعة أشواط متمكن ثم صلى أمام مقام إبراهيم، ثم بدأ يذهب إلى حلقات قريش وهم مجتمعون ويقول: «شاهت الوجوه من أراد أن ييتم ولده، وتثكل أمه وترمل زوجته، فليلقانى خلف هذا الوادى فإنى مهاجرًا غدًا».

يقول الحسن البصري: لكأن الإسلام يأتى يوم القيامة يمر على الناس ويقول: يا رب

هذا نصرنى، يا رب هذا خذلنى حتى يصل إلى عمر فيأخذ بيد عمر ويقول: «يا رب كنت غريبًا حتى أخذ بيدى هذا الرجل».

ويحكى رسول الله ﷺ عن رؤيا يقول: «رأيت الناس يعرضون على يوم القيامة منهم من يبلغ القميص صدره، ومنهم من يصل إلى رجليه، ورأيت عمر عليه قميص يجره»، ولما سُئل إلى ماذا يرمز القميص قال: «**يرمز إلى الدين**».

ما تقول لربك غدًا؟

فى هذه العبارة، يتمثل دين عمر ومنهاجه، وتستمد حياته معاييرها وموازينها، وفيها يتمثل جواز مروره إلى الدنيا، وجواز مرور الدنيا بكل طيباتها إليه.

فأمام كل لقمة شهية .. وأمام كل شربة باردة .. وأمام كل ثوب جديد تتساقط دموعه.. تلك الدموع التى تركت تحت مقلتيه خطين أسودين من فرط بكائه، ويصلصل داخل نفسه هذا النذير «ما تقول لربك غدًا..؟»

هذا هو جبار الجاهلية، وعملاق الإسلام.

هذا هو أمير المؤمنين الذى تفتحت لأعلامه الخافقات أقطار الدنيا، واستقبل الناس جيوشه كأنها البُشريات.

ها هو ذا، يؤُم الناس فى الصلاة فيسمع بكاءه ونشيجه أصحاب الصف الأخير!!

إنه كان يخشى الله خشية الحر الذى يرجو لربه وقارًا، ويضرع إليه إجلالاً وإكبارًا، ويخجل أن يلقاه بتقصير -أى تقصير-!!

وهذا هو نشيده دومًا:

«كنت وضيعًا فرفعك الله، وكنت ضالًّا فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله، فما تقول لربك غدًا إذا أتيته؟!»

ذات يوم، يقول لجليسه «أبى موسى الأشعري»: «يا أبا موسى، هل يسرُّك أن إسلامنا مع رسول الله وهجرتنا معه، وشهادتنا، وعملنا كله يُرد علينا، لقاء أن ننجو كفافًا، لا لنا ولا علينا؟».

فيجيبه أبو موسى: «لا والله يا عمر، فلقد جاهدنا، وصلينا، وصمنا، وعملنا خيرًا كثيرًا، وأسلم على أيدينا خلق كثير وإنا لنرجو ثواب ذلك».

فيجيبه «عمر» ودموعه تنحدر على وجنتيه كحبات لؤلؤ منثورة «أمّا أنا، فوالذى نفس عمر بيده لوددت أنّ ذلك يُرد لى، ثم أنجو كفافًا رأسًا برأس!!».

إنه كان يهاب الله ويستحيى من جلاله!!!

ويشكره على نعمه وهو على يقين بأن أحدًا لا يستطيع أن يشكر الله حق شكره مهما تكن حياته فاضلة عادلة مستقيمة.

وإنه ليعلم أن كل شكر لله إنما هو نعمة جديدة، تستأهل شكرًا جديدًا وهو يعلم أن ما أفاء الله عليه من نعمة الإيمان والهدى والإمارة إنما هى من محض فضله سبحانه وتعالى، قد آثره هو وقال له: إليك منى هذه العطايا يا عُمر» .. فإن هذا ليجعله يذوب ويذوب ويقول وقد فجّر حياءه هذا الشعور: «يا ليت أم عمر، لم تلد عمر!!».

أو يردد: «ما تقول لربك غدًا ؟!».

«فعمر» الذى يقف خلف رسول الله –واحدًا– من أصحابه.. «وعمر الذى يصير فيما بعد خليفة لرسول الله ﷺ وأمينه على أصحابه.. «عمر» هنا وهناك، هو هو، ذلك الإنسان الخاشع الضارع الأواب الذى لا يرجو فى دنياه وأخراه سوى أن ينجو كفافًا لا وزر ولا أجر !!

من أجل هذا يترك الطيبات والمباهج التى أحلها الله خشية أن تتنكر فيها «هذه» التى يخشى السؤال عنها من الله!!

ويحدثنا جابر بن عبد الله فيقول: «رأى عمر بن الخطاب لحمًا معلقًا فى يدى فسألنى ما هذا يا جابر؟ قلت: هو لحم اشتهيتُه فاشتريته، فقال: أو كلما اشتهيت اشتريت أما تخاف أن يُقال لك يوم القيامة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ ؟! إنه لا ينام إلا غِبًّا .. ولا يأكل إلا تقوتًا .. ولا يلبس إلا خشنًا، يقظان دائمًا .. يقول: «إذا نمت الليل أضعت نفسى، وإذا نمت النهار ضيعت الرعية!!».

ويسأل كل من يلقاه فى لهفة وجدّ: «قل لى بربك ولا تكذبنى كيف تجد عمر..؟ أتحسب أن الله عنى راضيًا؟ أترانى لم أخُن الله ورسوله فيكم؟؟!!»

كل هذه الرجفة .. كل هذا الحياء .. كل هذا الهم؛ لأنه لا يدرى ماذا يقول لربه غدًا!!

لقد بشره رسول الله ﷺ بالجنة، ففى يوم من الأيام دخل المسجد، فنادى على أبى بكر، فحضر إليه، ثم نادى على عمر بن الخطاب فحضر، وهنا أمسك الرسول ﷺ فى أيديهما يرفعهما: أبو بكر عن يمينه، وعمر عن شماله ويقول: **«هكذا نبعث يوم القيامة».**

ويقول رسول الله ﷺ: «رأيت فى المنام أننى فى يوم القيامة فوجدت قصر عظيم فقلت إلى هذا القصر، قيل: إنه لرجلٌ من قريش وقيل: لعمر بن الخطاب» ومع كل هذا –وغيره كثير– يرتجف الرجل العظيم ويحمل كل هذا الهم؛ لأنه لا يدرى «ماذا يقول لربه غدًا!!».

* * *

الا إنك ابن أمير المؤمنين؟!

إن أمير المؤمنين يعلم أن أمانة الحكم لا تُمتحن امتحانها الوثيق إلا فى علاقات الحاكم بأهله.

من أجل هذا بالغ فى إلزامهم جميعًا مسؤولية القدوة.

ولطالما حملهم على شظف العيش، ولأواء الحياة.. لطالما انتزع من أيديهم، بل من أفواههم اللقمة الطرية..!!

إنه ليحمّلهم من المسؤوليات أضعاف ما يحمله نظراؤهم من الناس حتى صارت قرابة «عمر» عبئًا يود الأقرباء لو استطاعوا منه الفرار..!

وكان إذا سنّ قانونًا، أو حظّر أمرًا، جمع أهله أولاً، وقال لهم: «إنى قد نهيت الناس عن كذا، وكذا. وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا. وإنى والله لا أُوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه منى، فمن شاء منكم فليتقدم، ومن شاء فليتأخر!!»

إن القربى من عمر، لا تعنى أن العدالة فى أجازة..، بل تعنى أضعافًا مضاعفة من التبعة والمسؤولية والحرمان.. تعني: البعد من كل شبهة والتخلى عن كل متعة. تعني: أن يتقدم هؤلاء الأقرباء عند الخطر، ويتأخرون عند المغنم، بل هى كذلك تعنى عند «عمر» حرمانهم من حق مكتسب، تفاديًا لشبهة محتملة.

ولو رأيناه وهو يعاتب ولده «عبد الله بن عمر» لرأينا عجبًا.. مع أن عبد الله ﷺ كان إمامًا فى الورع والزهد والتُّقى .. ومع هذا فما كان «عمر» يراه يستروح نعمة متواضعة من نعم الحياة، إلا قال له: «ألأنك ابن أمير المؤمنين ..؟!».

وكانت هذه العبارة تمثل الشعار الحى الذى رفعه «عمر» لأهله خاصة وللناس كافة تجاه الحق والعدل.

يدخل يومًا دار ابنه عبد الله، فيجده يأكل شرائح لحم، فيغضب ويقول له: «ألأنك ابن

أمير المؤمنين تأكل لحمًا، والناس فى خصاصة؟!! ألا خبزًا وملحًا..؟ ألا خبزًا وزيتًا..؟!!».

ويخرج إلى السوق يومًا فى جولة تفتيشية، فيرى إبلاً سمانًا، تمتاز عن بقية الإبل، فيسأل: إبلُ من هذه ؟

قالوا: إبل عبد الله بن عمر.

وانتفض أمير المؤمنين كأنما القيامة قامت، وقال: عبد الله بن عمر ؟!! بخٍ بخٍ يا ابن أمير المؤمنين!!

وأرسل فى طلبه من فوره، وأقبل عبد الله يسعى .. وحين وقف بين يدى والده، أخذ «عمر» سَبلة شاربه وقال لابنه:

ما هذه الإبل يا عبد الله؟

فأجاب: إنها إبل هزيلة اشتريتها بمالى، وبعثت بها إلى الحِمَى -أي: المرعى- أتاجر فيها، وأبتغى ما يبتغى المسلمون.

فعقّب «عمر» فى تهكم لاذع: ويقول الناس حين يرونها .. ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين وهكذا تسمّن إبلك، ويربو ربحك يا ابن أمير المؤمنين..!!

ثم صاح فيه: يا عبد الله بن عمر، خذ رأس مالك الذى دفعته فى هذه الإبل، واجعل الربح فى بيت مال المسلمين.

* * *

بداية الخلافة

يبدأ بهذه الخطبة التى استهل بها عهد خلافته يقول: «بلغنى أن الناس هابوا شدتى، وخافوا غلظتى، وقالوا: قد كان عمر يشتد ورسول الله بين أظهرنا، ثم اشتد علينا، وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟!! ألا من قال هذا فقد صدق، فإنى كنت مع رسول الله عونه وخادمه.. وكان عليه السلام مَن لا يبلغ أحد صفته فى اللين والرحمة، فكنت بين يديه سيفًا مسلولاً حتى يُغمدنى أو يدعنى فأمضى.. فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راضٍ.. والحمد لله على ذلك كثيرًا. وأنا به أسعد ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر فكان ممن لا تنكرون دعته وكرمه ولينه، فكنت خادمه وعونه، أخلط شدتى بلينه فأكون سيفًا مسلولاً حتى يُغمدنى أو يدعنى فأمضى، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل، وهو عنى راضٍ، والحمد لله على ذلك كثيرًا، وأنا به أسعد، ثم إنى قد وُليت أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين من بعضهم لبعض، ولست أدع أحدًا يظلم أحدًا، أو يعتدى عليه حتى أضع خده على الأرض حتى يُذعن للحق، وإنى بعد شدتى تلك، أضع خدى على الأرض لأهل العفاف، وأهل الكفاف.

ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها: لكم على ألا أجتبى شيئًا من خراجكم وما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم على إذا وقع فى يدى، ألا يخرج منى إلا فى حقه، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى، وأسد ثغوركم، ولكم على ألا أُلقيكم فى المهالك، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم.

فاتقوا الله وأعينونى على أنفسكم بكفِّها عنى، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم..!!».

هذا هو «عمر» إنه لا يعد نفسه مسؤولًا أمام الناس، ولا أمام التاريخ، بل هو مسؤول أمام الحق المبين – الله الذى لا تخفى عليه خافية والآن لننظر كيف باشر مسؤولياته تجاه الناس الذين استخلفه الله عليهم...

إنه يرى مسؤوليته مباشرة عن كل رجل فى سربه.. وكل امرأة فى بيتها .. وكل رضيع فى مهده..!!

هذا هو أمير المؤمنين، تدك جيوشه معاقل كسرى وقيصر. وهو هنا فى الساعات الأخيرة من الليل يحرس قافلة وفدت على المدينة.. ثم يؤرقه بكاء طفل، ولما يسأل أمه عن سر بكائه المتواصل تقول: إنى أحمله على الفطام فيأبى..

وسألها عمر: ولم تحملينه على الفطام؟!

قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم.

قال: وكم له من العمر؟

قالت: بضعة شهور.

قال: ويحك .. لا تُعجليه.

يقول صاحبه عبد الرحمن بن عوف: فصلى بنا الفجر يومئذٍ، وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء. فلما سلم قال: «يا بؤسًا لعمر!! كم قتل من أولاد المسلمين؟!!

ثم أمر مناديًا ينادى فى المدينة: «لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فإنا نفرض من بيت المال لكل مولود فى الإسلام».

ثم كتب بهذا إلى جميع ولاته فى الأمصار.

وفى عام الرمادة يسمع عن جماعة فى أقصى المدينة، قد نزل بهم من الضر أكثر مما نزل بأهل المدينة .. فيحمل فوق ظهره جرابين من دقيق، ويحمل خادمه قربة مملوءة زيتًا، ثم يهرولان إلى هناك يحملان النجدة والغوث.

* * *

أما عن مسؤوليته تجاه وُلاته ومعاونيه فى الحكم، فكان يختارهم فى حرص من يختار مصيره ..!!

كان يقول لأصحابه: «أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم، ثم أمرته بالعدل أيبرئ ذلك ذمتى ؟؟».

يقول أصحابه: نعم.

فيقول: «كلا .. حتى أنظر فى عمله، أعَمِلَ بما أمرته أم لا؟».

وإذا اختار الوالى أخذ بيده ويقول له: «إنى لم أستعملك على دماء المسلمين، ولا على أعراضهم ولكنى أستعملك لتقيم فيهم الصلاة، وتقسم بينهم، وتحكم بالعدل».

ثم يعدُّ له عدًّا، النواهى التى عليه أن يتجنبها.

* لا تركب دابة مُطهمّة..

* لا تلبس ثوبًا رقيقًا..

* لا تأكل طعامًا رافهًا..

* لا تغلق بابك دون حوائج الناس..

فى موسم الحج وعلى ملإٍ من الأعداد الهائلة من حجاج المسلمين القادمين من كل بلد، جمع عماله وولاته جميعًا، ووقف خطيبًا: «أيها الناس، إنى والله لا أبعث عمالى إليكم، ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم، فمن فُعل به سوى ذلك، فليرفعه إلى، فوالذى نفسى بيده لأمكننه من القصاص..!!».

يسأل وفدًا زاره من أهل «حمص» عن واليهم عبد الله بن قُرط فيقولون: خير أمير يا أمير المؤمنين، لولا أنه قد بنى لنفسه دارًا فارهة..

ويُهمهم عمر: دارًا فارهة..؟ يتشامخ بها على الناس؟ بخ بخ لابن قُرط .. ثم يوفد إليه رسولاً، ويقول له: ابدأ بالدار فاحرق بابها.. ثم ائت به إلى.

ويسافر الرسول إلى «حمص» ويعود بواليها فيمتنع عمر عن لقائه ثلاثة أيام.. ثم فى اليوم الرابع يستقبله ويختار للقائه مكان «الحرّة» حيث تعيش إبل الصدقة وأغنامها.. ولا يكاد الرجل يقبل، حتى يأمره عمر أن يخلع حلته، ويلبس مكانها لباس الرعاة ويقول له: هذا خير مما كان يلبس أبوك.. ثم يناوله عصا، ويقول له: وهذه خير من العصا التى كان أبوك يهش بها على غنمه .. ثم يشير بيده إلى الإبل ويقول له: اتبعها وارعها يا عبد الله !! ثم بعد حين يستدعيه، ويقول له معاتبًا: هل أرسلتك لتشيّد وتبني؟!!! ارجع إلى عملك ولا تعد لما فعلت أبدًا .. !!

هذا هو عمر .. فى الوقت الذى تجمع فيه الفرس وحلفاؤهم فى نهاوند وسعد ابن أبى وقاص يتهيأ لمنازلة جيوشهم اللجبة، تصل المدينة شكوى ضد سعد، فيستدعيه عمر فورًا، غير منتظر ريثما تنتهى المعركة الموشكة البدء والاندلاع .. ذلك لأن عمر يرى أنه إذا كانت الشكوى صحيحة وصادقة، فلن يبقى «سعد» حتى لو خسر المسلمون المعركة كلها.؛ لأن النصر كما يقول عمر: إنما يبطئ عن كل قائد أو جيش يجترح السيئات..!!

وإنا لنعرف نبأه مع حاكم مصر وفاتحها عمرو بن العاص حين وفد عليه من مصر،

فتى مكروب يقول: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك.. ويستوضحه النبأ فيعلم منه أن محمد بن عمرو بن العاص قد أوجعه ضربًا؛ لأنه سابقه فسبقه، فعلا ظهره بالسوط وهو يقول: خذها، وأنا ابن الأكرمين..!!

ويُرسل أمير المؤمنين يدعو عمرو بن العاص وابنه محمدًا ولندع «أنس بن مالك» يروى لنا النبأ كما شهده:

يقول: .. فوالله إنا لجلوس عند عمر، وإذا عمرو بن العاص يقبل وابنه خلفه.

فقال عمر: أين المصري؟

قال: هأنذا يا أمير المؤمنين..

قال عمر: خذ الدِّرّة، واضرب بها ابن الأكرمين..

«فضربه حتى أثخنه وعمر يقول: «اضرب ابن الأكرمين!!».

ثم قال عمر للمصري: «أجلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه..!!

قال الرجل: يا أمير المؤمنين، قد استوفيت، واشتفيت وضربت من ضربنى، ثم التفت إلى عمرو وقال: يا عمرو، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!!

أما عن مسؤولياته المالية، فهو لا يُعنى بالسهر على حفظ أموال الأمة فحسب، بل ويُعنى بالعمل على تنميتها، وإرباء الدخل القومى فى كل السبل.

* فهو -مثلًا- يقاوم فكرة توزيع الأرض على الفاتحين، بل يترك الأرض تحت أيدى زارعيها، مكتفيًا بالضرائب التى تدفع لبيت المال، ثم ينال كل مسلم حظه منها.

* وهو يشجع على إحياء الأرض الموات التى لا صاحب لها، والتى قال فيها الرسول ﷺ: **«من أحيا أرضًا ميتة فهى له»**.

وحين يرى أناسًا يضعون أيديهم على هذه الأرض، ويسورونها، ثم يهملون استصلاحها وزراعتها، يُسنُّ قانونًا يمنح واضع اليد فرصة مداها ثلاث سنوات فإذا عجز خلالها عن إحياء الأرض وتحويلها إلى حقل أو بستان، أو مرعى، نُحى عنها، وأُعطيت لغيره من القادرين.

* وهو كذلك يحض المسلمين على الكسب المشروع، فيغريهم بالتجارة الشريفة النظيفة.

* وهو يُعنى عناية خاصة بالثروة الحيوانية، فيخصص للماشية مرعى خصيبًا رحيبًا، يرعى المسلمون فيه ماشيتهم بغير مقابل، وإنه ليتعهد هذا المرعى، وكان قلما يمر يوم دون أن يرى الناس «عمر» قد خرج منتصف النهار، واضعًا ثوبه فوق رأسه ليقيه من الشمس قاصدًا أرض الحمى والمرعى، يتعاهدها ويتفقدها.

ولا يخطر بالبال ونحن نتحدث عن المال والدخل فى أيام «عمر» أننا نتحدث عن أموال شحيحة وموارد ضحلة، بل كان الدخل من أضخم الدخول يومئذٍ بعد أن آلت إلى الإسلام معظم ممتلكات الروم والفرس..!!

وكان يأمر أن تقسم خيرات البلد -أى بلد- على أهلها أولاً فإذا بلغوا كفايتهم. رفع إلى عاصمة الدولة نصيبها.

وبعد .. فهذا هو «عمر» الحاكم المسؤول .. وهذه هى طريقته فى تحمل مسؤولياته.

* فتجاه مسؤوليته عن نفسه وأهله، يُحمّلهم كل مغارم الحكم ويحرمهم من كل مغانمه.

* وتجاه وُلاته ومعاونيه، يختارهم بنفسه، ويُلزمهم صراطًا مستقيمًا.

* وتجاه أموال الأمة، يبلغ أقصى درجات الحفاظ عليها، والزهد فيها.

* وتجاه الجبارين العتاة، يبلغ أقصى أسباب الشدة والحزم..!!

* وتجاه الضعفاء والبسطاء يبلغ غاية اللين..!!

إن عمر الحاكم، حجة الله على كل حاكم..

فإذا قال حاكم ما، ساعة حسابه: يا رب عجزت..

قال الله له: ولماذا لم يعجز عمر؟؟!!

هذا الرجل العظيم الذى قضى تلك السنوات العشرة والشهور الستة، والأيام الأربعة، قضاها خليفة للمسلمين وأميرًا للمؤمنين؟؟

هذا الرجل الذى زلّل كل سلطانه لخشية الله، ووفر للناس الطمأنينة والأمن قدر ما خاف الله؟

* * *

لست بالخِبِّ، ولا الخبُّ يخدعني

ولقد خصت أم المؤمنين «عائشة» رضى الله عنها حِذقة الفائق فقالت: كان والله أحوذيًّا، نسيج وحده، قد أعدّ للأمور أقرانها.. ولقد أفاء الله عليه الكثير من الفهم والحكمة ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

فحظه من فقه الإسلام خاصة، حظ عظيم، جد عظيم.

يقول عبد الله بن مسعود: «كان عمر أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا فى دين الله».

وكان أصحابه يتحدثون بأنه ذهب وحده بتسعة أعشار العلم.

وكثيرًا ما كان يقول ﷺ: «لست بالخب ولا الخب يخدعني!».

وهى عبارة تُصور طبيعة عمر ونبوغه وذكائه.

هو إذًا ليس ذكاء معارك، بل ذكاء بطولات.

وليس ذكاء مدرسيًّا، بل ذكاء خلّاقًا مُبدعًا.

قال عنه رسول الله ﷺ: «لو كان بعدى مُحدّثون، لكان عمر»، «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه».

ويقول للرسول يومًا: يا رسول الله! أليس هذا مقام إبراهيم أبينا؟

يقول الرسول: «بلى».

فيقول عمر: فلو اتخذت منه مُصلىً.

فما هى إلا أيام حتى يتنزل الوحى بالآية الكريمة: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

وعندما تُوفى عبد الله بن أُبى ابن سلول، عارض «عمر» فى إصرار صلاة رسول الله عليه فقال الرسول ﷺ: «أخّر عنى يا عمر» ثم صلى عليه ومشى فى جنازته وقام على قبره. وكان ابن سلول من المنافقين وما كان إلا يسيرًا حتى نزلت الآية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ فما صلى بعدها رسول الله ﷺ على منافق، وقام على قبره حتى قبضه الله عز وجل.

ولا خير فينا إذا لم نسمعها

لم يكن أمير المؤمنين يحمل مسؤوليته حملان، رجل مفتون بنبوغه ولكنه كان يُقدس الشورى، ويحنى رأسه العالى فى خشوع وتهلل لكل معارضة، فى شجاعة صادقة..

ذات يوم يصعد المنبر؛ ليحدث المسلمين، فيبدأ خُطبته بعد حمد الله بقوله: «اسمعوا يرحمكم الله».

ولكن أحد المسلمين ينهض قائمًا، فيقول:

والله لا نسمع ..، والله لا نسمع ..!!

فيسأل «عمر» فى لهفة: ولِـمَ يا سلمان؟!

فيجيبه: ميّزت نفسك علينا فى الدنيا. أعطيت كلًّا منا بردة واحدة وأخذت أنت بُردتين!!

فينادى الخليفة ويقول:

أين عبد الله بن عمر..؟

فينهض عبد الله: هأنذا يا أمير المؤمنين.

فيسأله عمر على الملإ: من صاحب البردة الثانية؟

فيجيب عبد الله: أنا يا أمير المؤمنين.

ويخاطب «عمر» سلمان والناس معه فيقول:

إننى كما تعلمون رجل طوَّال، ولقد جاءت بردتى قصيرة، فأعطانى عبد الله بردته، فأطلت بها بردتى.

فيقول سلمان وفى عينه دموع الغبطة والثقة:

الحمد لله.. والآن قل نسمع ونُطع يا أمير المؤمنين!!

ويخطب الناس يومًا فيقول:

«لا تزيدوا مُهور النساء على أربعين أوقية، فمن زاد ألقيت الزيادة فى بيت المال».

فتنهض من صفوف النساء سيدة تقول: ما ذاك لك.

فيسألها: ولم؟

فتجيبه: لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

فيتهلل وجه «عمر» ويبتسم ويقول عبارته المأثورة: أصابت امرأة وأخطأ عمر».

ويدور حوار بينه وبين واحد من الناس ذات يوم ويتمسك الآخر برأيه، ويقول لأمير المؤمنين: اتق الله يا عمر! ويكررها مرات كثيرة.

ويزجره أحد الأصحاب الجالسين قائلًا: صه، فقد أكثرت على أمير المؤمنين، ولكن أمير المؤمنين يقول له:

«دعه، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها».

وإنه ليناقش الأمور التى تحتاج إلى مناقشة، ويُسلم تسليمًا لقضايا لا يفهم -أحيانًا- حكمتها، ولكنه مقتنع سلفًا بالرسول الأمين الذى جاء بها.

يقبل الحجر الأسود فى الكعبة، ثم يقول كأنه يخاطبه:

«إنك حجر لا تضر ولا تنفع، والله لولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك!!».

ويُهرول كاشفًا عن منكبيه، ويقول:

«فيم هذا الرّملان -الهرولة- والكشف عن المناكب، وقد أظهر الله الإسلام ونفى الكفر؟ ومع هذا لا ندع شيئًا كنا نفعله فى عهد رسول الله ﷺ».

وحين ولى الخلافة وقف يقول لقومه: «لن يغير الذى وَليتُ من خلافتكم شيئًا من خُلقى، إنما العظمة لله وحده، وليس للعباد منها شيء!!».

ويحدثهم عن المال فيقول: «ألا إنى ما وجدت صلاح هذا المال إلا بثلاث: أن يُؤخذ من حقٍّ ويُعطى فى حقٍّ، ويُمنع من باطل، ألا وإنما أنا فى مالكم هذا كوالى اليتيم: إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف».

ويقول فى كلمات وضاء عُذَاب: «من أراد أن يسأل عن القرآن، فليأت أُبى بن كعب.. ومن أراد أن يسأل عن الفرائض، فليأت زيد بن ثابت.. ومن أراد أن يسأل عن الفقه، فليأت معاذ بن جبل .. ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني؟ فإن الله جعلنى له خازنًا وقاسمًا..

وحين نستعرض كتبه لقواده وولاته نرى كيف كان ذكاؤه يبلغ غاية الرشد، فيكتب لأبى موسى الأشعرى موضحًا له منهج القضاء الذى ينبغى أن ينتهجه فيقول:

«من عبد الله أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن قيس.. سلام عليك أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متّبعة، فافهم إذا أدلى إليك، وأنفذ إذا تبيّن لك، فإنه لا ينفع حق لا نفاذ له، ساوِ بين الناس فى مجلسك ووجهك؛ حتى لا يطمع شريف فى حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك..

البينة على من ادّعى واليمين على من أنكر..

ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس، فراجعت فيه نفسَك وهُديت لرُشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم لا يبطله شيء.. ومراجعة الحق خير لك من التمادى فى الباطل..

الفهم، الفهم فيما تلجْلجْ فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا فى سُنة، واعرف الأشباه والأمثال، ثم قس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أحبها إلى الله، وأشبهها بالحق فيما ترى.. واجعل لمن ادعى حقًّا غائبًا أو بيّنة، أمدًا ينتهى إليه، فإن أحضر بيّنته أخذت له بحقه وإلا استحللْت عليه القضاء، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى، وأبلغ فى العذر.

والمسلمون عدول فى الشهادة بعضهم على بعض، إلا مجلودًا فى حدٍّ، أو مجربًا عليه شهادة زور، أو ظنينًا فى ولاء أو قرابة، فإن الله قد تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم الشبهات.

ويدخل عليه وفد من المجاهدين كانوا يفتحون تكريت وجلولاء، فيرى جسومهم ضامرة ووجوههم شاحبة فعرف أنه لرطوبة البلاد وسوء الإقامة، فكتب لسعد بن أبى وقاص يأمره أن يُحسن اختيار مكان ملائم للناس، ويرسم له الطريق فيقول: «ابعث سلمان رائدًا وحذيفة، فليرتادا منزلاً ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر، وادعُ أبا الهياج بن مالك، وأمره أن يجعلها مناهج -يعني: شوارع- عرض كل منها أربعون ذراعًا، وأخرى عرض كل منها ثلاثون ذراعًا، وأخرى عرض كل منها عشرون ذراعًا، لا تضيق عن ذلك شيئًا، وأمره أن يجعل فيها أذقّة- الزقاق: سبعة أذرع- لا تضيق عنها شيئًا..!!».

* * *

أولويات الفاروق

- فى السياسة العامة:

أول من سُمى بأمير المؤمنين.

أول من وضع تأريخ للمسلمين «تأريخ للخطابات».

أول من عسس فى الليل بنفسه.

أول من عقد مؤتمرات سنوية للقادة والولاة لمحاسبتهم ولسماع آرائهم، فى موسم الحج «فى أيام التشريق».

أول من اتخذ الدِّرة - العصا الصغيرة - وأدب بها.

أول من مصّر الأمصار أى خطط المدن وهو الذى خطط مدينة الكوفة والبصرة والفسطاط، وكان يقول: «لو عثرت بغلة بالعراق لسألنى الله عنها يوم القيامة».

- فى العبادات:

أول من جمع الناس على صلاة التراويح.

أول من جمع الناس على أربع تكبيرات فى صلاة الجنازة.

أول من وسع المسجد النبوى.

أول من فتح الجوائز لحفظة القرآن.

أول من أخَّر مقام إبراهيم.

أول من جعل الخلافة شورى.

- العلاقات العامة:

أول من أجلى اليهود عن الجزيرة العربية.

أول من جعل الجزية تُؤخذ من أهل الكتاب مقابل عدم دخولهم الجيش.

أول من أسقط الجزية عن الفقراء والعجزة من أهل الكتاب.

أول من أعطى فقراء أهل الكتاب من بيت المال.

أول من أصدر أمر ونشره فى كل البلاد ممنوع هدم كنيسة.

- **السياسة الحربية:**

أول من أقام معسكرات.

أول من أمر بالتجنيد الإجبارى.

أول من حدد مدة غياب الجنود عن زوجاتهم.

أول من أقام قوات احتياطية نظامية.

أول من أمر قواده أن يوفّوه بأحوالهم.

أول من جعل للجنود رواتب.

أول من أنشأ مخازن للجيش للأغذية.

أول من دوَّن الدواوين «أى أقام المؤسسات».

- **فى مجال المال والخزانة:**

أول من اتخذ دارًا للدقيق.

أول من أحصى أموال عماله.

أول من اتخذ بيتًا لأموال المسلمين.

أول من ضرب الدرهم.

أول من أخذ زكاة للخيل.

أول من فرض الأموال للشعب.

أول من جعل نفقة اللقيط من بيت المال.

أول من وزع الطعام بين البلاد.

أول من اتخذ دارًا للضيافة.

أول من أمن استراحات للناس بين البلاد والطرق.

أول من أقرض الفائض من بيت المال لمن أراد التجارة.

- **فتوحاته:**

فتح العراق، والشام، والقدس واستلم مفتاح بيت المقدس، وفتح مصر وأذربيجان.

الاحتضار

لقد أبى أمير المؤمنين «عمر» وهو يجود بأنفاسه الطاهرة أن يستخلف أحدًا. وحين ألح عليه بعض أصحابه كى يختار من يَخلُفه استمسك برفضه وقال لهم:

«أأحمل أمركم حيًّا وميتًا..؟ وددت أن يكون حظى منكم الكفاف لا على ولا لى..».

ثم ولى روحه الضارعة شطر الله الرحيم العليم، يسأله أن يلهمه الرشد، وأسبل جفنيه وأعمل فكره.. وعلى الفور لاح له من الله نور.. وكأنما تذكر اليوم البعيد القريب، وقد أرهفوا السمع لرسولهم الكريم ﷺ وهو يناديهم قبل وفاته بأيام.. ويقول:

«أيها الناس... إن أبا بكر لم يسُؤنى قط، فاعرفوا له ذلك..

أيها الناس.. إنى راضٍ عن عمر، وعلى، وعثمان، وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين، فاعرفوا لهم ذلك».

قال عمر: «فليكن هؤلاء الستة الذين منحهم الرسول ﷺ كل هذا التكريم».

ثم وجه إليهم الحديث: إنى نظرت فوجدتكم القادة، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، قد قُبض رسول الله ﷺ، وهو عنكم راضٍ، وإنى لا أخاف الناس عليكم ما استقمتم.

فإذا أنا مت فتشاوروا ثلاثة أيام، ولا يأتى اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم.

وليحضر معكم عبد الله بن عمر، مشيرًا، ولا يكون له من الأمر شيء.

وبعد.. سبحانه، رب عمر..!!

لقد ألهمه رشده، ووقاه شر نفسه، ومنحه من استقامة الشخصية وجلالها، ما جعله نسيج وحده.

لا فى بلده وحده، ولا فى عصره وحده، بل ملء كل مكان وعبر الزمان، جميع الزمان..!!

حينما نلقاه، نلقى بطولة روحه، نلقى بساطته، وإخلاصه وصدقه.. حتى ليتركنا فى

حيرة، كيف توفر لهذا الرجل، كل هذا القدر من الدّعة، والأمانة، والبساطة، وهو الذى زادت أعداد الجند فى جيوشه على مئات الألوف، وأصبحت الأموال تتكدس بين يديه فى فناء المدينة أكوامًا وتلالًا.

وأخذت الوفود من أرجاء الأرض القريبة والبعيدة، تسعى إليه طالبة الأمن، وأحاطت به قلوب الشعوب التى حررها من ظلم الروم وغطرسة الفرس وأحاطت به فى حب وفتون.

إنه عاش حياته متفوقًا، وكانت أيامه فوق الأرض موكبًا مستمرًّا من الانتصارات والسعادة منذ كان فتى يصارع الفتيان فى سوق عكاظ، فيظفر بهم وينتصر عليهم إلى أن أسلم فكان إسلامه فتحًا، ثم هاجر فكانت هجرته نصرًا.

هذا الرجل صاحب هذه الحياة الحافلة دومًا، الظافرة أبدًا... كان أروع انتصاراته وأبهاها وأبقاها، هذا الورع الذكى الجليل الذى أعطى دنيا الناس كافة، ودنيا الحكام خاصة، قدوة لا تُبلى.. قدوة تتمثل فى عاهل، بركت الدنيا على عتبة داره مثقلة بالمغانم والطيبات فسرحها سراحًا جميلاً.

والآن.. لقد قلنا شيئًا من الكثير الكثير، الذى يمكن أن يقال..

ولتسعنا فى هذا الموطن كلمة عبد الله بن مسعود:«لله دَرُّ ابن الخطاب .. أى امرئ كان؟!!

* * *